حنان زهرة
(قوراري خضرة)

رغيف وقلم

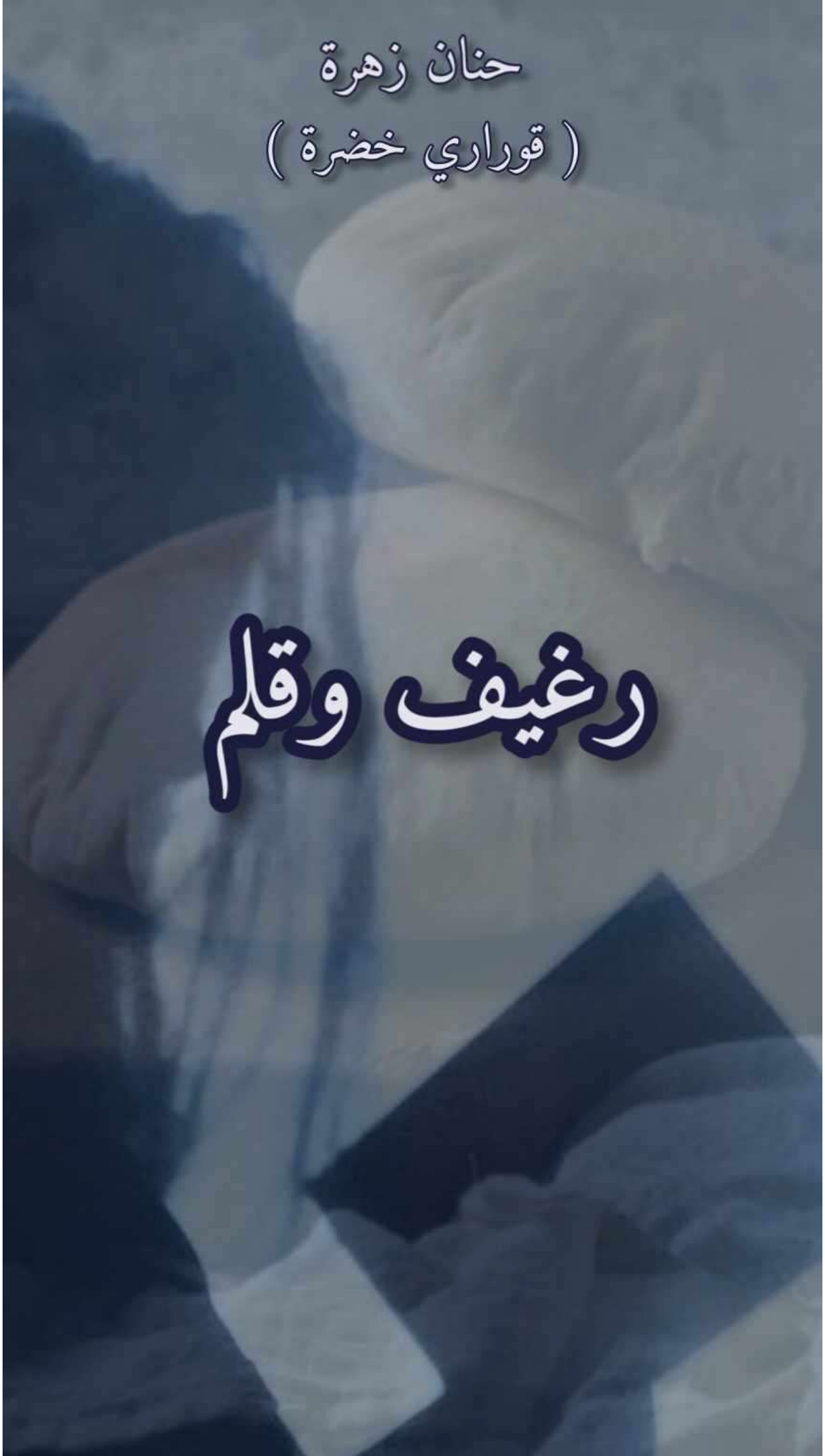

يوم جديد يلوح في الأفق يحمل معه اصرار الأم عائشة في أن تعيش حياة كريمة، فلم تكن الحياة سهلة عليها يوما لأنها تعيل والدتها المسنة المريضة وطفلتان جميلتان تبلغ الكبرى من العمر ثماني سنوات واسمها فاطمة، والصغرى خديجة ذات الست سنوات... ستلتحق خديجة بمقاعد الدراسة هذه السنة لهذا كانت فرحتها عارمة فهي تعد الأيام لتتعلم القراءة والكتابة، كانت عائشة تحضر الخبز المنزلي كل يوم لتقوم فاطمة وخديجة ببيعه في الشارع.

استيقظت عائشة باكرا حتى تتمكن من تخمير العجين بشكل جيد ومن ثم تبدأ بطبخ الخبز وبعدما تفرغ من كل العجين توقظ ابنتيها بقبله دافئة، قائلة لهن: صباح الخير يا نور حياتي، هيا استيقظن أمامكن يوم طويل.

فتحت فاطمة عيناها ونظرت لوالدتها وقالت: صباح الخير أمي الحبيبة أنا متحمسة للعمل اليوم كما أنني قد استيقظت قبل خديجة الكسولة، لتبعد خديجة اللحاف من على وجهها وتقول: أنا أيضا استيقظت، دخلت عائشة للمطبخ لتحضر فطور الطفلتين لكنها وجدت أن الحليب لا يكفي حتى لشخص واحد فما بالك بطفلتين.

تنهدت عائشة وقالت في نفسها: ماذا سأفعل؟ ولم تجد حلا غير إضافة الماء إلى ذلك الحليب حتى يكفي ابنتيها فقامت بتسخينه وقسمته على كأسين ووضعت بجانب كل كأس رغيف.

ركضت خديجة نحو والدتها وقالت: أنا جائعة هل حضرتي لنا الفطور؟ ابتسمت عائشة وقالت: نعم لقد وضعته على الطاولة، ونادت فاطمة لتنضم إلى أختها بقيت

عائشة تنظر لابنتيها وهي تشعر بحزن شديد على حالها، ثم قالت خديجة: كم أحب الخبز الذي تعده أمي إنه شهي.

وضعت عائشة الخبز في القفة وأعطته لفاطمة وقالت لها: احملي القفة جيدا وامسكي بيدك الأخرى أختك

لا تدعيها تفارق ناظرك فقالت فاطمة: لا تقلقي أنا كبيرة الآن سأعتني بأختي وأبيع الخبز، خرجت فاطمة وخديجة إلى الشارع وبدأت رحلة بيع الخبز، يمشيان في الشوارع الموحشة ويدقان الابواب لعلهما يجدان من يشتري منهما رغيفا أو أكثر.

كان الوقت يمضي ولا يبيعان إلا القليل وفي هذا الوقت كانت فاطمة تسرد القصص لأختها قصص الأميرات وقصصا أخرى جميلة حيث لا شيء غير السعادة والألعاب والحلوى... ثم قالت خديجة: أنا فرحة كثيرا لأنني سأدخل إلى المدرسة ويصبح عندي قلم وكراس ومحفظة، فقالت فاطمة: نعم ما أجمل أن يتعلم الإنسان ولهذا علينا مضاعفة الجهد وبيع كل الخبز حتى تتمكن والدتنا من شراء الأدوات المدرسية لنا، فقالت خديجة: وعيناها تلمعان هل تقصدين أننا إذا بعنا كل الخبز سيصبح لدينا أدوات؟ هزت فاطمة رأسها وقالت: نعم، فتحمست خديجة وبدأت تدق الأبواب وتقول خبز للبيع خبز شهي ولذيذ.

تجولت الأختان في مختلف الأحياء ومروا بكل المنازل ولم يبعن غير نصف الكمية وبدأت خديجة تشعر بالجوع لكنها حاولت التماسك، إلا أن فاطمة أحست بها وقالت: لنجلس على الرصيف ونتناول بعض الخبز فقالت خديجة: لكن هذا الخبز للبيع كيف سنأكله؟ فردت عليها فاطمة: نحن نبيعه من أجلنا حتى لا نبقى جياع وحتى نتمكن من

شراء الملابس والدواء لجدتي لهذا حتى وإن أكلنا رغيفا واحدا فهذا لن يؤثر لأنك جائعة، ابتسمت فاطمة وبدأت تأكل هي وأختها وهن ينظرن إلى السيارات وهي تمضي بسرعه شديدة، وبعد أن يئست فاطمة من أنها ستتمكن من بيع كل الخبز عادت هي وأختها إلى المنزل، فتحت لهن عائشة الباب وقالت: لقد تأخرتن في العودة اليوم، لتقول خديجة: لم نتمكن من بيع كل الخبز، نظرت إليها عائشة وقالت: لا مشكلة لنأكل نحن ما بقي من الخبز فليس لدينا ما يؤكل أساسا.

أسدل الليل ستاره وتمددت العائلة على الفراش ثم قالت الجدة: ابنتي عائشة أخرجي للشارع وابحثي عن أخاك لقد تأخر في العودة، ردت عائشة: نامي يا أمي العزيزة فأخي قد غادرنا منذ زمن طويل...عم الصمت المكان ثم قالت خديجة: ما بها جدتي يا أمي؟ قالت عائشة: والدتي على هذه الحالة منذ سنوات إنها تنسى كثيرا تعود ذاكرتها إلى الماضي أحيانا وأحيانا أخرى لا تعرف حتى كيف تأكل، فقالت فاطمة: لكن يا امي حتى وإن كان هذا المرض أصاب عقلها لكن على الأقل قلبها حي، فهي تتذكر من تحب وربما تراهم من حين لآخر، ثم قالت خديجة: إذا سأدرس يا أمي وأنجح لأكون طبيبة وأعالج جدتي وكل الجدات في العالم، ثم قالت عائشة علينا أن نبيع غدا كل الخبز حتى أتمكن من جمع المال لشراء الأدوات المدرسية فقد بقي أسبوع على موعد الدخول المدرسي، نامت العائلة وحل الفجر فبدأت الأم بتحضير العجين ككل يوم، لكنها اليوم حضرت كمية أكثر، كمية مضاعفة لعلها تجمع بعض المال بشكل سريع وتعوض خسارة يوم أمس.

عندما وصلت الطفلتان إلى المسجد التقى بهن الإمام ألقى عليهن تحية الإسلام وقال: يا لها من رائحة زكية تفوح من القفة، فقالت فاطمة: نعم إنها رائحة الخبز الذي تعده

أمي، فنظر إليها الإمام وقال: سآخذ كل ما بقي عندكن فقالت: خديجة ولكن يا عمي هل ستأكل كل هذا الخبز لوحدك؟ نحن في المنزل نتقاسم الرغيف بحيث رغيفا لأمي وجدتي ورغيفا بيني وبين أختي، فقال الإمام: نعم ونحن نفعل ذلك، كما أن عائلتي كبيرة جدا ربما حتى هذا الخبز لن يكفينا، أعطت فاطمة الخبز للإمام وأعطاهم عملة ورقية من فئة مائتين ألف دينار

لم ترى الطفلتان مثل هذه الورقة منذ ولادتهما، شعرتا أن هذا المبلغ سيكفيهما لشراء الأدوات فبدأتا تقفزان فرحا وقالت خديجة: سنتمكن اليوم من شراء الأدوات... وعند عودتهن إلى البيت اعترض طريقهن مراهق وقد كان يراقبهن منذ مدة، فقال: لن تستطعن المرور من هذا الشارع بالمجان، أعلم أنكن تملكن المال أعطياني إياه، صرخت فاطمة وقالت: إنه مالنا لن نعطيك إياه، اقترب المراهق من فاطمة وأمسك بيدها وأخذ المال منها بقوة وركض مبتعدا، لم تستوعب فاطمة الذي جرى وبعد لحظات بدأت تركض وركضت كما لم تركض من قبل، أنفاسها كادت تتوقف ولكنها لم تستسلم تركض وتصرخ أعد النقود فنحن بحاجتها نريد الدخول إلى المدرسة وشراء الأدوات، أنا ارجوك... ولم تنتبه فاطمة إلى خطواتها فوقعت أرضا بشكل عنيف لكنها لم تشعر بأي ألم لأن شعور الحزن والخيبة كانا أقوى من شعور الألم، بقيت فاطمة لدقائق على الأرض ربما حاولت أن تجمع شتات نفسها لتتمكن من استيعاب ما جرى، ثم لحقت بها خديجة وقالت: أختي ما بك؟ وبدأت خديجة بالبكاء ولم تتمالك فاطمة نفسها لتبدأ هي الأخرى بالبكاء... كان الموقف صعبا فجأة اختفى ذلك الأمل أمل طفل صغير بأن يمتلك قلما وكراسا كان هذا كل ما يحلمون به، عادت فاطمة إلى البيت

ورأتها والدتها فقالت: أنت تنزفين من ركبتيك هل وقعتي؟ بدأت فاطمة بالبكاء فعانقتها والدتها وقالت: حسنا لا تبكي سيزول الالم سأعقم لك الجرح.

في المساء خرجت فاطمة وخديجة من البيت للعب قليلا، ثم قالت خديجة: لا تحزني يا أختي ألم تسمعي ما قاله الإمام لنا، قال بأن عائلته كبيرة ستحضر أمي غدا الخبز ونذهب عنده سيشتريه منا لأجل عائلته، ابتسمت فاطمة وعانقت أختها... وعندما حل الصباح استيقظت فاطمة لتجد والدتها جالسة وملامح الحزن بادية على وجهها فقالت: ماذا جرى أمي؟ ألم تحضري الخبز بعد؟ لقد تأخر الوقت، نظرت عائشة لها وقالت: لقد انقطع الغاز لن نتمكن من تحضير الخبز وبيعه... وحزنت فاطمة وأحست بصدمة كبيرة ثم قالت في نفسها: الآن ماذا سنفعل من أين سنشتري الأكل والدواء لجدتي؟

بعد لحظات دق الباب دقة واحدة قوية وما إن فتحت عائشة الباب لم تجد أحدا، لكنها وجدت علبة كبيرة أدخلتها إلى المنزل ثم فتحتها لتجد فيها محفظتين جميلتين، وأدوات مدرسية ذات شكل جميل نادت عائشة لفاطمة وخديجة وبدأت الدموع تنهمر من عينيها، تقدمت خديجة من والدتها وقالت: كل هذه الأدوات لي ولأختي؟

ردت عليها عائشة نعم إنها من أجلكن... ربما كانت هذه دعوة مستجابة لدعوة أم أرادت أن تحقق حلم طفلتيها أو دعوة طفلة بريئة.

مر اليوم بشكل سريع فكما يقال اللحظات السريعة تهرب بسرعة، قالت عائشة: عليكن النوم باكرا، فغدا أول يوم للدخول المدرسي، تمدد كل فرد في مكانه استعدادا للنوم ثم قالت الجدة: ادرسي بجد يا خديجة حتى تصبحي طبيبة وتعالجيني، نظرت لها خديجة

واقتربت منها وغمرتها بعناق وقالت لها نعم سأصبح طبيبة وأعالجك، ابتسمت فاطمة وقالت لوالدتها: ألم أقل لك أن قلب جدتي حي، ولأول مرة تحدثت الجدة وكأنها مدركة لكل ما حولها... من المحزن أن نعرف بأن حولنا أطفالا لا يجدون ما يأكلون ولا يملكون ملابس لتدفئهم، وأدوات مدرسية للالتحاق بمقاعد الدراسة، أو أن ندرك أن هناك أطفالا يعملون لإعالة أسرهم وأن هناك أيتاما وأرامل يعانون، بل من العار أن ندرك كل هذا ونتجاهل ونكمل يومنا وكأنه لا توجد مشكلة... إنسان مثلنا يعاني ونتخلى عنه حينئذ سنكون فعلا وحوشا.